في كتابه الجديد «ضدّ أفلاطون»، يردُّ الشاعر والتشكيلي العراقي الاعتبار للشعر والشعراء من خلال الإضاءة على مئة وستّ عشرة قصيدة بلغات مختلفة رُسمت جداريات في مدينة ليدن الهولندية، ويقرأ عبرها مكانة الشعر عند سكّان المدينة، وقيمته في حياتهم اليومية

ناصر مؤنس قراءة غرافيتيا حوائط ليدن

المدينة بوصفها ديوان شعر عالمي

علي صلاح بلداوي

ينشغل الشاعر والتشكيلي والمترجم العراقي ناصر مؤنس (1963)، في كتابه «ضدّ أفلاطون: قصائد على حيطان المدن»، الصادر حديثاً عن «دار مخطوطات» في هولندا، بالقصائد المكتوبة على حيطان مدينة ليدن الهولنديّة، إذ يوظِّفُ علاقته بالمكان واللغة، بتَتَبُّع المكتوب بين أحياء المدينة وأزقّتها، وترجمته من الهولنديّة إلى العربيّة.

تشتهر مدينة ليدن بكونها المدينة التي رُسمت على حيطانها مئة وستّ عشرة قصيدة لشعراء من مختلف بُلدان العالم، إذ يُصادف المُتجوّل بين شوارعها وأحيائها ومكتباتها، حيطاناً مَطليّةً بلونٍ معيَّنٍ ورُسمت عليها قصائد شعريّة بـ«غرافيتيا» خاصة تُحاكي القصيدة وموضوعها.

بدأتْ قِصّة هذا الكتاب الذي يمتدّ على خمسمئة وثماني صفحات، كما يرويها مؤنس، من خلال مصادفتَين، الأولى في عام 1995، وعنها يكتب: «في صباح أحد الأيام وفي طريقي إلى ‹مكتبة جامعة لَيدن› للبحث عن بعض المراجع والمخطوطات، شاهدتُ زوجين مُسِنَّين يتوقفان للنظر إلى الحائط. ابتسمتُ لهما وتوقّفتُ لأرى ما الذي كانا ينظران إليه، وكانت المفاجَأة، كلمات باللّغة العربيّة مرسومة على الحائط: أَيَّامُنا كالشَّتَاءِ القُطبي/ ساعات الفرح فيها، كالضياء، خاطفة/ والفواجع كالليل لا تنتهي/ للإشراقات أوقاتٌ ما أسرع ركضها وللظلمات المواسم المقيمة/ وفي نهارات أثقالها كالرَّصاص/ يومض كَخَطْفِ البرق حُبٌّ/ لا يُفهَمُ منطقُه/ ويندلعُ الشِّعرُ كاللّهيب/ في هشيم ضربته الصاعقة/ في هذا الرماد العتيّ المنتشر/ كيف بقِيَت هذه الكلماتُ الحارقة؟». ويُتابع مؤنس: «يا إلهي هل هي حاضرةٌ هنا من دون معاونة أحد، هل هي حاضرة من أجلي، هل جاء بها بياض هذا اليوم الثلجي، هل كتبت نفسها هنا مثل تعويذة حارسة؟». كانت القصيدة لجبرا إبراهيم جبرا. أما المصادفة الثانية التي يذكرها الكاتب، فهي عثورُه بعد سنواتٍ على كتاب «أدب الغرباء»، المنسوب لأبي الفرج الأصفهاني، في «مكتبة بريل» بذات المدينة، وهو كتاب يتضمّن أشعاراً كتبها الغرباء في أماكن متفرّقة، على جدران المساجدِ والكنائس وحيطان البساتين وعلى القبور، بل وعلى عبّارات السفن، وأسوار المدن.

من خلال قصيدة جبرا، ومن ثمَّ كتاب «أدب الغرباء»، وُلدت فكرة هذا الكتاب الذي يُثير فيه مؤنس علاقة الشعر بـ«الغرافيتيا»، والتي يعتبرها المقاومة المسالمة التي تدمج بين الفنون والآداب وبين النشاط الذي يرفض كلّ الخراب الذي يطوقنا.

توزَّع الكتاب على عشرةِ فصول، وكلّ فصلٍ يضمّ القصائد التي تتشابه في موضوعاتها، حيث يبدأ بقصائد الحرّية (14 قصيدة)، في حين تناولت باقي الفصول: الطبيعة (16 قصيدة)، والحبّ (3 قصائد)، والإحساس الداخلي (23 قصيدة)، وفنّ الكتابة (18 قصيدة)، والقصائد التجريبيّة (13 قصيدة)، والفنون (9 قصائد)، والحرب (7 قصائد)، والحياة (7 قصائد)، والتطوير الذاتي (6 قصائد). تَطلّب جمْعُ هذه القصائد وترجمتها، التجوال في أحياء المدينة وشوارعها والتقاط الصور ومراجعة تاريخ كلِّ قصيدةٍ، ومناسبةِ كتابتها، والظروف التي أُنجز فيها العمل، إلى جانب ذلك، فقد أضاف مؤنس قراءته الخاصة لكلّ قصيدة، وما أرادت أن تعبّر عنه، كاشفاً عن رموزها وأبعادها، ومُعرِّفاً بكاتبها وسيرته وأهم إسهاماته الشعريّة، وهذا بطبيعة الحال ينطوي على جهودٍ ما بين الجمع والبحث والترجمة، وهو ما لم يسبقه إليه أحد في تناول موضوع كهذا له علاقة بالشعر والغرافيتيا وبعملٍ ميدانيّ، ما عدا الأصفهاني الذي أشار إليه الكاتب.

يُثير الكتاب مجموعةً من الأسئلة التي لا تنتهي، عن علاقة الشعر بالمدينة، وبالسكّان، وعن قيمته عندهم، وعن علاقة اللون والحركة والرمز المرسوم مع كلِّ قصيدة، ولماذا لا نُشاهد أعمالاً كهذه في مُدننا الخاوية، بل ربما لا نشاهدها حتى في أهم المدن الثقافيّة في العالم، يثير مؤنس سؤالاً آخر: لماذا يتمّ سجْنُ الشعر في الكتب أو خنقه في المناهج الدراسيّة ولا نجده في كلّ مكان، على الحيطان، في الشوارع وعلى واجهات الباصات والقطارات، على أكياس الخبز وعُلب الحليب والكثير من المرافق العامّة؟ لماذا نحرم شعرنا العربيّ من هذه المحاولة المختلفة للاتصال بالكون ونحمله على السفر إلى ضفاف أُخرى؟

لعلّ الإجابة عن هذا السؤال لا تنطوي على معاينة الواقع الثقافيّ ومدى التفاتِ العامّة إلى أهميّة الشعر في الحياة اليوميّة، بل لا أجد من مبرِّر سوى غياب الوعي الجماليّ عند الناس المشغولة بتحصيل العيش والانهماك بالسياسة والمشاكل المجتمعيّة التي تُشتِّتُ الذّهن ولا تقرّبه من أي فكرةٍ جمالية، إضافةً إلى فوضى المدن التي تفتقر إلى التنظيم والتي تؤثّر سلباً على الذائقة الجمعيّة، بالتالي، في ظلّ هذه الظروف، لا تهتمُّ الناس بوجود قصيدةٍ أو جداريّة في مكان عام، بل إنَّ العين لن تلحظ التصحّر الفنّي الذي تُعانيه المدن، ولن تفكّر فيه. أما عن مدينةٍ اعتاد سكّانها قراءة الشعر المكتوب على جدرانها، فهو ما يستدعي السؤال عن علاقتهم بالشعر، ومدى استعدادهم النفسي والثقافي لمثل هذا التلقّي الذي لا يبدو مألوفاً، بل عن علاقتهم بالجانب الفني على أيّة حال، كون القصيدة ليست مجرّد كلمات مكتوبة، بل هي مرسومة بلونٍ خاصٍ وحركةٍ خاصة تُميّزها عن غيرها. ولا بد من الإشارة إلى نقطةٍ مهمة، إنَّ القصائد كُتبت بلغتها الأصليّة، فهناك العربيّة والروسيّة والصينيّة والهنديّة واليابانيّة وغيرها من اللغات، وإلى جانب كلِّ قصيدة ترجمة إلى الهولنديّة؛ كي يتمكّن السكّان من قراءتها بلغتهم، هذا الفعل، أي كتابة القصيدة بلغتها الأصليّة، هو الإشارة إلى أنَّ هذا المشروع ليست الكتابة هدفه الوحيد، بل هو تحويل المدينة إلى ديوانِ شعرٍ عالميّ بألسنةٍ مختلفة، ولن يجد السكّان ضَيراً بوجود لغةٍ لا يقرؤنها، فهُم أساساً يدركون أنَّ ما كُتب على الحائط هي قصيدة، وهذا يكفي لأن يجعلهم يتعايشون مع الشعر بشكله وحَرْفه ولونه وجدرانه وليس لمجرّد قراءته فقط.

إن عنونة الكتاب بـ«ضدّ أفلاطون»، له غايته التي أرادها المؤلّف، فهو يشير بذلك إلى موقف أفلاطون من الشعر والشعراء، إذ طردهم من المدينة، وهذا الطرد يرى فيه الكاتب الركيزة التي تعتمدها السلطات لنقد التيارات الشعريّة التي لا تمثّل رغباتها، وهنا نتبين أن أفلاطون فَرَض سلطتَه على الشعر كما تفعل السلطات، بالنتيجة هو لقاءٌ في العمق واشتراك في التوجّه المضادّ للشعر، هذا ما يجعل الشاعر والقارئ يشعران بخيانة أفلاطون لهما، لذا جاء العنوان بالضدِّ من فكرة الفيلسوف، وليعيش الشعر ويتغلغل في حياة الناس اليوميّة ويشاركهم تنقّلاتهم واستراحاتهم، أينما تلفّتوا أو عبروا، قد تصادفهم قصيدة، لهذا، فهنا المدينة لا تخضع لحكم الرقيب ولا ترزح للسلطة التي تحدّد وفقاً لمزاجها، ما يبقى في المدينة وما يُطرد منها، وبهذا، فإنَّ المدينة تحوّلت إلى متحفٍ مفتوح، لا يحتاج إلى إذنٍ لدخوله، حيثما تمشي تصادفك الرسوم والقصائد وكلّ ما له علاقة بالفنّ.

وبالعودة إلى مدينة ليدن، وإذا سألنا، لماذا اختصّت هذه المدينة دون غيرها من المدن الهولنديّة بهذا المشروع؟ يُجيب مؤنس: «تتميّز المدينة بصفاتٍ خاصّة في تفاصيلها وبمستوىً عالٍ في طريقة التعامل مع الكتابات الحائطيّة، وتتمتّع بلدية المدينة بموقف تقدّمي تجاه الفن الغرافيتي وفن الشارع. فهناك الكثير من الكتابات القانونيّة التي تمّت أنْسَنَتُها لتصبح من أهم المعالم التي تميّز المدينة. فضلاً عن مجموعة واسعة من الأعمال غير القانونيّة.

(شاعر من العراق)

إلى عبد الكريم الخطابي أيضاً

من النصوص التي تحتويها جدران مدينة ليدن الهولندية، قصيدة للشاعر والمغنّي المغربي الأمازيغي الوليد ميمون ويتوجّه فيها إلى عبد الكريم الخطابي، يقول: «حيث تشهد الجبال على شجاعة الرجال/ شجاعة عبد الكريم ومُحاربي الرّيف/ الذين خاضوا المعارك ضدَّ الغزاة/ انظرُوا أيُّها الشباب، انْظُروا إلى الجبال معبّدة بنجوم من مآثر الأُسود/ مأثرة عبد الكريم/ مأثرة المناضلين من أجل الحريّة».

يَعتبر الغرافيتيا مقاومةً تدمج الفنون والآداب بوجه الخراب

مَسْحٌ ميداني لكلّ حائط في ليدن كُتبت عليه أبيات شعرية

قصيدة جبرا إبراهيم جبرا كما تظهر على احد جدران مدينة ليدن الهولندية

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

نظرة أولى

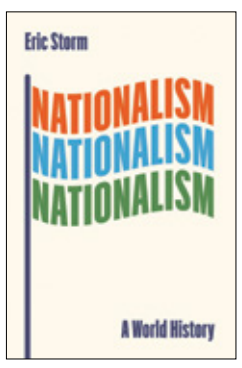

«القومية.. تاريخٌ عالمي»، عنوان كتاب صدر حديثاً عن «منشورات جامعة برنستون» للباحث **إريك ستورم**. يدرس المؤلف صعود الأفكار القومية منذ القرن الثامن عشر في أوروبا وصولاً إلى اليوم، وكيف جلبت الدولة القومية حقوقاً لفئات اجتماعية وحرمت فئات أُخرى، ويعطي العمل اهتماماً كبيراً لتأثير القومية على الفنون والعلوم الإنسانية، ويرسم خريطة لانتشارها من خلال الصحف والتلفزيون ووسائل التواصل الاجتماعي، ومنها جهود الحفاظ على التراث الثقافي، واختراع الأطباق والمشروبات والأزياء والعمارة والديكور والسيارات التي تعبّر عن الهويات القومية.

للكاتب السوداني **عمرو منير دهب**، صدر، عن «ضفاف» و«الاختلاف» و«الأمان»، كتابٌ بعنوان «التفتيش في قلب المتنبّي». يحاول العمل سبر أغوار وجدان أبرز شعراء العربية عبر أكثر من ثلاثين عنواناً تناولت شعره وخصوماته ومختلف شؤون حياته، إضافةً إلى البواعث النفسية والاجتماعية التي حدت به إلى إبداع نصوصه. من عناوين الكتاب: «المتنبّي بوصفه موظَّفاً»، و«عنصريتنا لا عنصرية المتنبّي وحده»، و«المتنبّي وسلاسل البحتري الذهبية»، و«لو كان المتنبّي متعقّلاً»، و«شبكة علاقات المتنبّي»، و«استغلال السلطة الأدبية»، و«المتنبّي بين الموهبة والشغف».

بترجمة محمد صبري الدالي، صدر، عن «المركز القومي للترجمة، كتاب «عالم مرتضى الزبيدي (1732 - 1791)، حياته وشبكة علاقاته ومؤلّفاته» لـ **ستيفان رايخموت**، أستاذ الدراسات الشرقية والإسلامية في «جامعة بوخوم» الألمانية. يضيء العمل سيرة اللغوي البارز، ابتداءً من ميلاده في الهند وحتى رحيله في القاهرة، متتبّعاً شبكة من علاقاته العلمية والشخصية، بالاستناد إلى معجمه الذي تضمّن مجموعةً كبيرة من التراجم لأساتذته وتلاميذه وأصدقائه، كما يتقصّى مصنَّفيه «تاج العروس في شرح جواهر القاموس» و«إتحاف السادة المتّقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي».

«بلاغة العصر: البلاغة التكوينية، نهج النقد الثقافي»، عنوان كتاب للأكاديمي الأردني **عبد القادر الرباعي**، صدر عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر». يتناول الكتاب ما يُسمّى البلاغةَ التكوينية، لمؤسّسها جيمس بويد وايت، أستاذ الأدب الإنكليزي وأستاذ القانون في «جامعة ميشيغن» الأميركية، والتي تُعرف أيضاً ببلاغة العلوم الإنسانية، ويعرّفها وايت بأنّ منطلقاتها تتّسق مع اللغة، والأدب، والتكوين الفنّي، والثقافة، والإبداع، والهوية الذاتية المجتمعية، والفنّية، والثقافية، وتنهج إلى النقد الثقافي لتركيزها على الخطاب الثقافي، والنسق المضمر.

في كتابه «الفن والثورة»، الذي ترجمه ماهر حرامي وصدر عن «دار التكوين»، يتناول **ليون تروتسكي** قضايا الأدب والفن والثقافة في ظل تدهور النظام الرأسمالي، مستعرضاً مكانة الفن واستقلاليته الجمالية، ودور التعبير الفنّي في النضال من أجل إقامة مجتمع اشتراكي جديد، فيستخدم أدواته النقدية في تفكيكِ أعمال فنّية وأدبية لفنانين وأدباء كان لهم تأثيرٌ بارزٌ في الفكر الاشتراكي، ويستكشف العلاقة المعقّدة بين السياسة والثقافة في ظلّ تلك الثورات الاشتراكية، كما يضيء على القوة التحريرية للمعرفة والفنون في مواجهة الاضطرابات الاجتماعية.

قليل من أحداث التاريخ حظي بالاهتمام الذي حظي به اتحاد الشعوب الإيطالية تحت هيمنة الإمبراطورية الرومانية. من أسطورة رومولوس وريموس التأسيسية إلى تفكّك الإمبراطورية، يسرد كتاب «موجز تاريخ روما مروياً لمن يشكّك به»، الصادر عن دار «بلانيتا» الإسبانية» لمؤلفه **خوان إيسلافا غالان**، الأحداث التاريخية وفق تسلسل زمني هدفه الترفيه، مازجاً القصّة بشخصيات خيالية تختلط مع الأباطرة والجنود والنساء والأرستقراطيين والمصارعين الحقيقيين في روما القديمة. لا تخلو القصة من علاقات الحب ودوافع السلطة أو الجنس لدى الشخصيات.

صدر عن «مركز الموسيقى العربية والمتوسطية» بالشراكة مع «دار سوتيميديا» كتاب «الأغاني الشعبية في تونس بين هاجس التأصيل ومنزع التأهيل» للباحث **أمين الزواري** وتقديم لطفي عيسى. يندرج العمل في سياق الاهتمام بالثقافة الشعبية في تونس، والأغاني الشعبية على نحو خاص، والنظر في موقعها من رهانات ما تنفكّ تثير الجدل، أبرزها: قدرة الأغاني الشعبية في تونس على الاستمرار والتفاعل من جهة، ومخاوف الذوبان والانصهار من جهة أُخرى، وهل أفضى عصر الميديا الجديدة إلى نشوء معايير مبتكرة في شأن نجاح الأعمال الموسيقية من عدمه؟

بترجمة غسان حمدان، صدرت عن «دار غاف» الطبعة العربية من رواية «إعصار عام الفأر» للكاتب الإيراني **محمد قاسم زاده**. تبدأ الرواية بوصول مهندسين معماريين إلى قرية «ملكان» الخرافية، ثم نعيش تحوّل القرية إلى مدينة، ونرى التحولات بعيون مراقبيها، ومعهم إبراهيم بري أفسا، المثقف الذي استقر في القرية لسنوات قبل تحولها إلى مدينة، وما إن تختفي القرية حتى ينشق ويصبح أول سجين للمدينة. ومن أجواء الرواية نقرأ: «لم تكن ملكان بعيدة عن البحر، كان الطريق المسفلت الممتد إلى الشمال يمر عبر القرية، ويبعد ستة كيلومترات فقط من البحر».